ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
منصة المجلات العلمية الجزائرية ASJP

مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 02 (2020) - ص 91- 101

سردنة التّاريخ بين المرجعية وجمالية التّشكيل الرّوائي

History Narrativization between Referentiality and aesthetics of Creation

برقاد أحمد[1] عبدلي محمّد السّعيد [2]

ahmedbergad2@gmail.com saidabdelli45@yahoo.fr

جامعة البليدة2/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/10/15 تاريخ القبول: 2019/10/22 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخّص البحث

تهدف هذه الدّراسة إلى استجلاء علاقة الرّواية بالتّاريخ، وتبيان الحدود الفاصلة بينهما، وآليات تسريد البنية التّاريخيّة التي تستند إلى الواقع وإخضاعها إلى فعل التّخييل: بأمكنتها وشخوصها وأزمنتها المتشبّثة بالتّاريخ، لتصير جزءا متفاعلا متناغما مع البنية الخطابية الرّوائية. من خلال هذا الطّرح تتبلور فكرة البحث بغرض الإجابة عن إشكالية جوهرية، تكمن فيما يلي:

ماذا نقصد بسردنة التّاريخ؟ وما هي المفاهيم المصطلحية المتعلّقة بها؟ وما آليات تسريده، وما غايات ودلالات استدعائه؟

الكلمات المفتاحية: الرّواية التّاريخية -الخطاب التّاريخي . السّرد -التّخييل.

ABSTRACT:

This study aims at highlighting the relationship between the novel and History, their borderline, and the mechanisms narrativizing the historic structure, referring it to reality while submitted to imagination; in order to interact in harmony with the novel's discursive structure.

Hence, our research tends to clarify a central issue: What do we mean by narrativization of History ? What are the concepts and mechanisms involved; the purpose and signs intended?

Keywords: Historical novel; Historical discourse; Narration; Imaginary.

1. مهاد :

لا شكّ أنّ المتتبّع لجنس الرّواية في جميع مراحلها وعلى اختلاف أشكالها وأنواعها وتوجّهاتها ومشاربها، يلاحظ عدم رسوّها على تعريف شاف كاف لها، فهي "تتّخذ لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف

[1] المؤلف المرسل: برقاد أحمد

رداء وتتشكّل أمام القارئ تحت ألف شكل، ممّا يعسّر تعريفها تعريفا جامعا مانعا"[1]، والسّبب في ذلك عائد بالدّرجة الأولى إلى تطوّرها الدّائم من جهة، وتواشج خطابها مع عديد الخطابات من جهة أخرى.

فعلى الرّغم من خضوع خطابها لفعل التّخييل عبر التّشكيل اللّغوي، إلاّ أنّها تبقى تغترف وتنفتح في الوقت نفسه على فنون إنسانية أخرى ومرجعيات ثقافية عدّة.

ومن ثمّ فإنّ الرّوائي- بطبيعة الحال- لا يشذّ عن هذا التّوجّه، فهو لا ينطلق في تشكيل خطابه من العدم، وإنّما يعتمد في نحت بنية وعناصر رواياته؛ أحداثها وقضاياها ومقولاتها وأساليب سردها من مرجعيات عدّة، نذكر منها -على سبيل الذّكر لا الحصر- الأسطورة، والواقع، والسّيرة بنوعيها؛ الذّاتية والغيرية، والموروث الشّعبي، لتكون بذلك-الرّواية- أكثر الأجناس الأدبية تحرّرا،كونها نمطا سرديّا مرنا، يملك طاقة استيعابية عجيبة، فهي لا تجد حرجا في احتواء الأجناس الأدبية وغير الأدبية، متجاوزة بذلك قوانينها وأدواتها لتستعير منها تقناتها وأدواتها[2]، خاصة التّاريخ الّذي تقاسمه عديد الخصائص.

فالنّصّ الرّوائي . شأنه شأن أيّ نصّ أدبيّ . مهما ادعى التّفرد والنّقاء لن يُخلق وحيدا بمعزل عمّا أسماه رولان بارت(*Roland Parthes*) (*1915م.1980م*) بـ "الشّفرة المرجعية"، التي تشتغل في النّص الأدبي اشتغالا على النّحو الذي يسمح به الفضاء الأدبي الجمالي للنّص[3]، تتمثّل هذه الشّفرة المرجعية في كلّ الموارد والمراجع التي"تحيل عليها العلامة اللّسانية سواء في العالم الحقيقيّ(الواقع غير اللّسانيّ) أو في العالم المتخيّل"[4]، إلّا أنّ هذه الإحالة لا تعني بأيّ حال من الأحوال التزام الخطاب الرّوائي حرفيا بحيثيات المرجع، كما لا يعني . أيضا . الانفصال الكلّي عنه تحت تأثير فعل التّخييل، وإنّما يحاول الرّوائي بعثه في حُلّة جديدة، تكون أكثر سحرا وإمتاعا من الوجود المرجعي بغية التّأثير في المتلقي، لذا لا يجد الرّوائيون مانعا في الإفادة من خاصية المرجعية في تشكيل خطاباتهم.

1- المرجع التّاريخي في الخطاب الرّوائي:

إنّ الحديث عن مصطلح "التّسريد" أو "السّردنة" في تعالقه مع مصطلح "الخطاب التّاريخي" هو حديث عن تلك العلاقة النّاشئة بين "الرّواية" و"التّاريخ"، علاقة في ضوئها تتمّ عملية ترويض وإخضاع الخطاب التّاريخي ذي المرجعية الواقعية لمنطق السّرد المسلّح بعديد التّقانات؛ أهمّها التّخييل. من هنا وجب تحديد ماهية المصطلح النّقدي الدّقيق المضطلع بتوصيف هذا النّص السّردي من جهة، والتّطرق لمفهومي "الخطاب الرّوائي" و"الخطاب التّاريخي" من جهة أخرى، مع الحديث بطبيعة الحال عن تداخلهما وتفاعلهما وفق علاقة حوارية.

1- إشكالية مصطلح تسريد التّاريخ روائيا:

لا شكّ أنّ البحث في الشّراكة بين "التّاريخ" و" الرّواية"، يجرُّنا حتما إلى الحديث عن مصطلح يستوعب خطابيهما المختلفين؛ الأوّل يستند على الحقيقية التّاريخية، في حين الثّاني جماليّ متخيّل، من خلاله يتمّ التّأسيس لجدلية في ضوئها تتماهى بنيتاهما تحت مظلّة السّرد، الذي يلعب دورا مهمّا في فعل تلقي هذا الجنس الأدبي الهجين، محقّقا بذلك حالة من التّعايش بين المرجعين.

إنّ إجماع النّقاد على المفاهيم المتعلّقة بعملية ترويض المادة الحكائية التّاريخيّة وتحوير واقعها إلى واقع آخر، يحاول فيه الرّوائي . بكلّ ما لديه من قدرة تخييليّة . إيهام القارئ بمصداقية عالمه الذي ينشئه لغويا لغايات مختلفة، لم يمنع من وجود تعدّد مصطلحيّ، حاولوا من خلاله مقاربة مفاهيمه. نذكر منها على سبيل الذّكر لا الحصر:

أ)- **في النّقد الغربي:** نورد مصطلح"*Historiographic Métafiction*"،أيّ"ما وراء القصّ التّأريخي"، لصاحبته النّاقدة الكندية ليندا هتشيون"*Linda Hutcheon*" (1947م)، والتي صاغته في كتابيها: الأوّل "شعرية ما بعد الحداثة...التّاريخ، النّظرية، المتخيَّل"، الصّادر سنة(1988م)، والثّاني"سياسة ما بعد الحداثة"، الصّادر سنة(1989م)، والذي ترجمه إلى العربية النّاقد المصري فاضل ثامر "الميتا-رواية التّاريخية" أو "سرد التّاريخي"[5]، معتبرا هذا المصطلح أكثر تعبيرا عن هذا النّمط من الكتابة المتشظّي بين المرجعية التّاريخيّة والتّشكيل السّردي الفنّي، والسّاعي إلى أَخْيَلَة التّاريخ، إلّا أنّه من باب المفاضلة فضّل استخدام مصطلح "الميتا- سرد" "*Meta-narration*"[6]، تماشيا مع تنامي اتجاهات"الميتا – رواية" أو "ما وراء الرّواية".

ب)- **في النّقد العربي:** نجد مصطلح "تحبيك التّاريخ"، لصاحبه النّاقد العراقي" كاظم نادر"، الّذي طوّره في ضوء أطروحات بول ريكور "*Paul Ricoeur*" (1913م - 2005 م) حول دور التّحبيك أو صياغة الحبكة، التي تؤدّي فيه دور الوسيط السّردي في تجميع مكوّنات هذا المنجز الهجين[7]. أمّا النّاقد محمد القاضي، فقد آثر تبني مصطلح" التّعالق النّصي التّاريخيّ- الرّوائيّ"، مبرّرا ذلك "أنّ صلّة الرّواية التّاريخيّة بالنّصوص التّاريخيّة هي صلة تناص، يكون فيها التّاريخ نصّا سابقا *"Hypotex"* والرّواية نصّا لاحقا *"Hypertex"*، مع ما يمكن أن يتضمّنه ذلك من ضروب العلاقات بينهما: كالتّحويل والمحاكاة السّاخرة (*Parody*)»[8].

بينما النّاقد "عبد الله إبراهيم"، فيرى أنّ مصطلح"الرّواية التّاريخية" يجعل الخطاب التّاريخي يكرّس هيمنته على نظيره الرّوائي، لذا تخلّى عنه واستبدله بمصطلح "التّخيّل التّاريخي"، داعيا من خلاله إلى تفكيك ثنائية "الرّواية / التّاريخ"، ودمجهما في هويّة سرديّة جديدة محايدة، مادامت "المادة التّاريخيّة المتشكّلة بواسطة السّرد، قد انقطعت عن وظيفتها التّوثيقيّة، والوصفيّة وأصبحت تؤدّي وظيفة جماليّة ورمزيّة، ذلك بأنّ التّخيّل لا يحيل على حقائق الماضي ولا يقرّرها، ولا يروّج لها، وإنّما يستوحيها بوصفها ركائز مفسّرة لأحداثه»[9]، وهو تصوّر يعطي علاقة الرّواية بالتّاريخ بُعدا تفسيريا بعيدا عن اجترار الحدث كما وقع في بيئته المعيشة.

عطفا على ما تمّ عرضه، يتّضح جليّا أنّ هذا التّعدّد المصطلحي ينمّ عن حرص النّقاد على نحت مصطلح يتجاوز مصطلح "الرّواية التّاريخيّة"، الذي يُعلي صوت المركزية التّاريخيّة الرّسمية المعتمدة على التّوثيق، لذا سعوا إلى إيجاد مصطلح بديل- من خلاله- يتمّ تفكيك الخطاب التّاريخ وتعويضه برؤية تخييليّة بديلة، تجرّده من قداسته وتروّضه داخل بنية خطابيّة روائيّة تستقطب المتلقي برُقيّها على جميع المستويات: فنيّا وبنيويّا ورؤيويا ودلاليا.

1 – 2- الخطاب الرّوائي والخطاب التّاريخي: الحديث عن هذا الزّخم المصطلحي وتنوّع تسمياته لدى النّقاد هو نتاج مفاهيم عدّة، تتحوّل فيه المادة التّاريخية إلى مادة سرديّة تسائلها الرّواية جماليا، فيصبح

التّاريخ بذلك خادما لها وفق رؤية الرّوائي، تنصهر ضمن خطاب مُهجّن، تتمّ فيه أَخْيَلَةُ التّاريخ باجتماع نمطين من الخطاب، ينتميان إلى مملكة السّرد: خطاب روائي والآخر تاريخي.

أ)- الخطاب الرّوائي: الرّواية . كغيرها من الفنون التّعبيريّة. تُترجم معاناة الإنسان الفكريّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، تعدّ في الوقت الرّاهن من أكثر الأجناس السّردية هيمنة على المشهد الأدبي إبداعا ونقدا، خطابها تشكيل لغوي سردي دال، يتضمّن بنية تحوز لغات وأساليب وأحداثا وأشخاصا متنوعة. فهي "شكل أدبي يرتدي أردية لغوية، تنهض على جملة من الأشكال والأصول كاللّغة، والشّخصيات، والزّمن، والمكان، والحدث، يربط بينها طائفة من التّقنيات كالسّرد، والوصف والحبكة، والصّراع لتصل إلى نهاية مرسومة بدقّة متناهية وعناية شديدة"[10].

من مميّزاتها- أيضا- أنّها عمل نثري قوامه الخيال، نصّها يؤدّي وظيفتين جمالية تخيليّة، وإيديولوجية لها علاقة بالواقع الاجتماعي الذي استقى منه الكاتب روافده المعرفية والتّخييلية، يختار منه الأحداث ويبلورها ويحوّرها في خطابه، منتقلا بها من الواقعي إلى المتخيّل في إطار بنية شديدة التّعقيد، متراكبة التّشكيل، تتلاحم فيما بينها وتتضافر لتشكّل في نهاية المطاف شكلا أدبيا جميلا[11]، وهذا بفضل تقاناتها المذهلة التي تؤهّلها للتّعبير عن الواقع بمختلف أبعاده، ناهيك عن رحابة فضائها السّردي القادر على إقامة علاقات بينيّة بينها وبين النّصوص الأدبيّة والغير أدبية، ولعلّ أهمّها التّاريخ؛ الذي يُعدّ إحدى أدوات تصويره.

ب)-الخطاب التّاريخي: يكتسي التّاريخ أهمية بالغة في حياة الأمم والشّعوب، فـ"من أنكر فضيلة التّاريخ فقد تباعد في الجهالة وتوغّل"[12]،كعلم ينتمي إلى فرع العلوم الاجتماعية والإنسانية، يهتمّ بدراسة الماضي البشري دراسة موضوعية، من خلال رصد وتتبّع مجموع الأحداث التي تميّز حركيته في فضائه الزّمكاني، بغية التّعامل مع الحاضر واستشراف المستقبل[13]، لذا كان من الطّبيعي . باعتباره علما . الاستناد في تدوينه على معطيات علمية ثابتة، أهمّها؛ صدق المروي ونزاهة الرّاوي وحياد والمؤرّخ، خاصة هذا الأخير الذي يسعى إلى تحقيق سرد أحداث جرت فعلا في الماضي[14]، بغية تأصيلها وبلورة تصوّر للمستقبل من خلال معطياتها.

إلّا أنّ هذه الموضوعية في التّعاطي مع الحدث التّاريخي تبقى نسبية لعدم قدرة المؤرّخ . باعتباره الذّات المدوّنة لموضوعاته . على التّجرد من إملاءات الانتماء بشتى أبعادها؛ الدّينية أو القومية أو المذهبية أو الفكرية أو الأيديولوجية، ومن ثمّ الجزم بمصداقية وموضوعية ما يدوّنه أمر مشكوك فيه، رغم استناده على وثائق تاريخيّة، والتي هي الأخرى في أحايين كثيرة تفقد مصداقيتها بفعل التّأويل والقراءات الآثمة لنصوصها، وبالتّالي لا يمكن أن ترقى هذه الاجتهادات إلى منزلة الحقائق التّاريخية الأكيدة، الموثوق بمصداقيتها.

من هنا تتّضح جسامة مسؤولية المؤرّخ في كتابة التّاريخ والتّعامل مع مادته الحكائية، سواء تلك التي جمعها من رواة أو المستقاة من مراجع ومصادر موثّقة، لذا وجب عليه التّحلي بقدر كبير من الموضوعية، والنّأي بالنّفس عن إملاءات الذّات التي تجعله يجانب الحقيقة، مثلما عليه التّحرّر من قيود السّلطة التي لا تتوانى في أحايين كثيرة في فرض حقائق تاريخية مشوّهة، لأنّ "لكلّ عهد نظرة إلى الماضي تتحكّم فيها أغراض الحاكمين الجدد، فيمكن أن ندرس ما يقوله كلّ مؤرّخ عن الحقبة التي يدرسها لا بالنّظر إلى وقائع تلك الحقبة وحسب، بل أيضا إلى وقائع العهد الذي يعيش فيه المؤرّخ ذاته، وهكذا يمكن ربط تعليلات المؤرّخين بأغراضهم"[15]، وهي أغراض مشبوهة، ينجم

عنها انحراف فضيع يشوّه الحقيقة، ممّا يؤكّد أنّ كتابة التّاريخ ليس أمرا هيّنا، فهي تتطلّب من المؤرّخ الاتصاف بالموضوعية والصّدق والنّزاهة والحياد.

1- 3 - تسريد التّاريخ روائيا بين المرجعية والتّخييل: هناك العديد من العوامل التي تجعل عملية تسريد المادة الحكائية التّاريخيّة عملية ممكنة على الرّغم من اختلاف المرجعين، لأنّ الرّواية والتّاريخ "مصطلحان تاريخيان لغويان، رضعا من ثدي واحد هو الخبر، وهما قائمان على التّأثير والتّأثّر ببعضهما البعض"[16]، لتكون العلاقة بينهما ليست علاقة عابرة، بل علاقة تواشج، وهو ما أكّده بول ريكور*(Paul Ricoeur)* بإلحاق الخطاب التّاريخي بالسّرد، قائلا:"إنّ التّاريخ هو سرد"، وهي فكرة يقاسمها إياه المؤرّخ والنّاقد الأمريكي هايدن وايت*"Hayden White"* (1928م - 2018م) في مؤلّف تناول ثيمة "التّاريخ بوصفه سردا" "*History Narrative*"."[17]

تتعزّز هذه الإمكانية باشتراك كلّ من المؤرّخ والرّوائي في تحويل الوقائع إلى بنى لغوية، من خلال هدمها وإعادة تشكيلها وفق رؤية ومنظور كلّ واحد منهما، خاصة هذا الأخير-الرّوائي- الذي يسعى إلى بناء عالم افتراضي بديل، يفكّك فيه المركزية التّاريخية الصّارمة، جازما بذلك أنّ التّاريخ- في حدّ ذاته- هو رواية ما كان، والرّواية- أيضا- تاريخ ما يمكن أن يكون[18]، ليصير الخطاب الرّوائي بهذا المنظور منظارا لقراءة الماضي واستشراف المستقبل، معيدا إنتاج الماضي ودمجه مع لحظة الكتابة مسائلا، لا مجترا لأحداثه، ليتحوّل الماضي التّاريخيّ إلى زمن مستمر يحمّله الرّوائي تفسيرات.

وليتحقّق هذا المسعى،ينتقي الرّوائي مرحلة من التّاريخ حافلة بالأحداث والشّخصيات والأزمنة والأمكنة، تتوافق مع رؤيته، فيعيد تشكيل واقع سرديّ متخيّل، يحمل دلالات جديدة، تُنجز على أنقاض واقعيته، حيث تتداخل الشّخصيات التّاريخية المنتقاة من الماضي مع شخصيات متخيّلة حديثة الولادة في بيئة زمكانية، هي الأخرى إمّا متخيّلة أو من الواقع، تكون مسرحا لأحداث تجمع بين الواقع المعيش أو المتخيّل[19]، دون أن يظهر أيّ شرخ بين مكوّنات وعناصر هذا النّمط السّردي الهجين، الذي يتجاذبه هاجسان: الأمانة التّاريخية، والآخر: مستلزمات الفنّ الرّوائي.

وبهذا يكون التّاريخ الرّسمي الموثّق قد تنازل عن قدسيته، وخضع لفعل التّسريد ليصبح مجرّد خطاب؛ فاسحا المجال بذلك أمام ترهينه أو تخييل تواريخ فرعيّة بديلة، ينشئ الرّوائي حيثياتها بعيدا عن الالتزام بما دوّنته المصادر والمواثيق التّاريخية وما يصحبها من صرامة وتقييد، كونه ينشط داخل فضاء فنيّ رحب فيه هامش التّحبيك أكبر، أين يتحرّر من إكراهات التّطابق مع الوثائق والأرشيفات[20]. إلّا أنّ هذا التّحرّر لا يعني بأيّ حال من الأحوال سهولة الأمر، بل يتطلّب ذلك وجود أقلام روائية متمرّسة محنّكة، تجيد استثمار المرجعية التّاريخيّة في إنتاج هذا النّصّ الرّوائيّ المُهجّن بالتّاريخ.

2 - آليات تسريد البنية التّاريخية:

عطفا على ما سبق يتّضح جليّا أنّ ترويض بنية الخطاب التّاريخي وإخضاعها لمنطق السّرد ليست عملية هيّنة في جانبها الموضوعاتي،كون الرّوائي يلجأ إلى تفكيك مركزية التّاريخ الصّارمة ذات البعد الموضوعي، وإحلال محلّها بنية تتّسم بالمرونة والانفتاح على دلالات متنوعة، تنبش في حقائقه ولا تزوّره، و" إنّما تحاول إضاءته

بالتّخييل التّاريخي وتأسيس فضاءات تعالق تواصلية بين الماضي والحاضر"[21]، ماض مستلهم من أحداث تاريخية وحاضر بنيته مُستحدَثة لحظة الكتابة.

أمّا عن الجانب البنائي، فهو ممكن إذا ما أخذنا في الحسبان طبيعة الخطاب الرّوائي المِطواعة من خلال ليونة بنيته القادرة على استيعاب أيّ خطاب، فما بالك بالخطاب التّاريخي الذي تجمعه به عديد التّقاطعات؛ فكلاهما يوظّفان السّرد في فعل الكتابة، أضف إلى ذلك اشتمال كلّ منهما على بُنى وعناصر سردية نفسها(الحدث، الشّخصيّة، المكان، الزّمن، الرّاوي، المروي،...)،وهي عوامل كفيلة باختزال الحدث التّاريخي وتكثيف مكوّناته وصهره في الحدث الرّوائي، لتكون المادة التّاريخيّة بذلك مادة سردية أعاد الخيال الرّوائي صياغتها وتشكيلها بصورة تسمح بانصهارها وتماهيها داخل التّشكيل الرّوائي"[22]، ولن يتأتّى هذا - بطبيعة الحال - إلّا بتوفّر قدرة إبداعية تخييلية لدى الرّوائي وفق آليات مختلفة، منها:

2 -1- **استثمار الوثيقة والنّص التّاريخي**: يُعدّ استغلال الوثائق التّاريخيّة بما فيها المراسلات والمواثيق والمخطوطات أهمّ آليات تسريد التّاريخ باعتبارها سندات مساعدة على قراءة وفهم الظّروف التّاريخية التي أفرزتها، وتعكس نتاجا فكريا ساد تلك الفترة المنتقاة من التاريخ، يلجأ الرّوائي إلى الإفادة من متونها واستثمارها في خطابه الرّوائي بطريقة سلسة تتماهى مع بقية مكوّنات بنيته، دون المساس بالحقائق التّاريخية الثّابتة، لأنّه "عندما يصوغ حكاية تاريخيّة ناجحة لا يختزل التّاريخ، ولكن يجعله مرجعية لفضائه المتخيّل لغرض الكشف عن مهملاته ومنسياته، وأحيانا لتبديد شكوكه"[23]، ليكون النّصّ التّاريخيّ الموثّق بذلك عنصرا يحمل دلالات تتضمّن نتاجا فكريا، يفسّرها المتلقي بعد تفعيل مضامينه مع الخطاب الرّوائي المتخيّل.

هذه الآلية - توظيف الوثائق والسّندات التّاريخية- أصبحت تسجّل حضورها بقوّة في عديد المتون الرّوائية،كونها تمكّن الرّوائي من العودة إلى الأحداث التّاريخية وإعادة بعثها في منجزه الرّوائي وفق رؤيته الخاصة بفنية عالية، تجمع بين ما هو تاريخي موثق من جهة، وبين ما هو روائي سردي افتراضي تخييلي من جهة أخرى. نذكر- على سبيل الذّكر لا الحصر- الرّوائي وسيني الأعرج الذي وظّف كمّا هائلا من المواثيق والمعاهدات في روايته "رماد الشّرق "بجزأيها، نورد منها نصّ رسالة "السّير ريجنالد ونجت" . الحاكم البريطاني في مصر. والتي جاء فحواها كالآتي: "إنّ حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها مازالت واقفة موقف الثبات كلّه لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم العربية، وهي مصمّمة على أن تقف بجانب الأمم العربية في جهادها حتى تبني عالما عربيا يسود فيه القانون... بدل الظلم العثماني" [24]. رسالة وظّفها واسيني ليبيّن أنّ مصير العربي بيد الآخر الغربي.

2-3- **تفعيل الذّاكرة التّاريخيّة** : تؤدي الذّاكرة بنوعيها؛ القصيرة المدى والطّويلة منها دورا فعّالا في حياة الإنسان،كونها تعمل على تخزين المعلومات واستدعائها لحظة الحاجة، وهو ما يتمّ استثماره من قبل الرّوائيين في منجزاتهم الرّوائية، فقد عُدّ تداعي الذّاكرة التّاريخية من أهمّ التّقنات المستحدثة في الرّواية؛ من خلال استرجاع ما تختزنه ذاكرة الشّخصيات والأمكنة والأزمنة من أخبار وأحداث تحمل نبض الماضي، لتتمّ أخيلتها وإخضاعها لمنطق السّرد، فتكون بذلك عنصرا فعّالا في تشكيل بنية خطاباتهم الرّوائية، أين تتحقّق الجمالية على مستوى البناء، والغايات على مستوى المضامين؛ كالتّعليم واستلهام العبر.

فمن بين الشّواهد على توظيف الذّاكرة التّاريخية، نسوق ما ورد في آخر منجز للطّاهر؛ رواية (قصيد في التّذلل)، بعد إحساسه بانحراف الثّورة عن مبادئها، وتوجّسه من حالة التّردي التي آل إليها الوطن، حيث تتداعى ذكريات السّارد مسترجعا أحداثا متعلّقة بتاريخ الثّورة التّحريرية، فيها الكثير من الرّمزية والجمالية لمعالجة ونقد واقع يهمّ حاضر الوطن، يعرض مقطعا سرديا، يتحدّث فيه عن حادثة محاكمة الخونة، التي حلّل من خلالها شخصية السيّد الكبير تحليلا نفسيا يعري به الكذبة التي يشيعها في محيطه حول بطولاته، فهو يمثّل عيّنة من نماذج المناضلين الخائنين للوطن وللشّهداء، قائلا: "ذات مرّة أحضر الفدائيون مجموعة من الخونة، ربّما كان عددهم خمسين، ربّما أكثر أو أقلّ بقليل، ترأس سي عبّان رمضان -رحمه اللّه- المحكمة، وكان ذلك في مقرّ قيادة الولاية الأولى بجبل بلوط، أصدر الحكم بذبحهم جميعا، كلّفني بذبح عشرة منهم، وأعطاني خنجرا في طول السّيف، مدّتهم صفا واحدا، هكذا ...هذا جنب هذا كالسّردين، ورحت أذبح بالثّلاثة...وبجرّة سكين واحدة ... الأخير وضعت رأسه على كتفي...ظلّ يحدّق فيّ ويتحدّث معترفا بخيانته...، وكان سي عبّان رمضان، رحمه اللّه منبهرا مدهوشا"[25]، نلاحظ أنّ وطار اتخذ ذاكرة السّارد وسيطا لتداعي حدث تاريخي، أراد من خلالها معالجة قضية الانتساب إلى الثّوار دون وجه حقّ.

كما نجد بعض الرّوائيين لا يتردّدون في استدعاء الأحدث التّاريخية التي عاشوها أو عايشوها شخصيا، وهو استدعاء يكاد يتطابق مع ما يرد في السيّر الذّاتية من استرجاعات، كما هو وارد في قول الرّوائي العراقي الرّبيعي: "كانت ذاكرتي وما زالت عراقية، ولعل ما يلفت الانتباه أنّني كلّما مضت بي السّنوات بعيدا عن العراق، تذكّرت تفاصيل ما مرّ بشكل أوضح، حتى صرت أتذكّر تفاصيل التفاصيل، ولذا جاءت قصصي ورواياتي اللّاحقة أقرب إلى أن تكون عملية بناء ذلك الماضي من جديد"[26]، وهذا بطبيعة الحال عبر لمسة فنّية تضفي جمالية على هذا المحكي التّاريخي بعيدا عن نمطية السّرد التّاريخي الجاف.

2- 4- **تجميد حركة الزّمن التّاريخي وإعادة بعثه**: كما هو متعارف عليه أنّ الزّمن يلعب دورا بالغ الأهمية في بنية الخطاب التّاريخيّ والخطاب الرّوائيّ، فلا يمكن تصوّر حدث؛ سواء أكان واقعيا أو متخيّلا خارجه، إلّا أنّ الزّمن في الخطاب الأوّل (التّاريخيّ) يخضع للتّتابع المنطقي، فهو بنية زمنيّة خارجية لا تخضع لبنية معقّدة متداخلة، وإنّما تخضع للتّسلسل المنطقي للأحداث، بعيدا عن المفارقات الزّمنية التي توظّف في السّرد، كونه زمنا خطّيّا يتّجه نحو الأمام، ولا يمكن أن يعود إلى الوراء.

في حين أنّ الزّمن في الخطاب الرّوائيّ عكس الخطاب التّاريخي، لا يخضع للتّسلسل المنطقي للأحداث، ولا يكون بالضّرورة مطابقا لزمن القصّة، ففي لحظة الإبداع يمكن للرّوائي إيقاف عجلة الزّمن وتجميد حركته لبث حدث تاريخي متخيّل على هامش الأحداث التّاريخية الرّئيسة، وهو ما تمّ استثماره في تسريد أحداث تاريخية، وجعلها جزءا من بنية النّص الرّوائي، لأنّ الواقعة المستعادة تفقد الكثير من ملامحها بمجرد دخولها مختبر الكتابة السّردية لتكتسب صفات جديدة بطريقة تداعوية عفوية تخييلية جمالية وفنّية متخلّصة من الطّابع الخبري الذي تقلّ أدبيته[27]، كما يمكّن أيضا استغلال تجميد حركة الزّمن في خلق شخوص وأمكنة متخيّلة إلى جانب الحدث التّاريخي ليسدّ بها فراغات أو لحظات منسيّة تجاوزها المؤرّخ .

3- مرامي تسريد التّاريخ روائيا:

لا يقف ترويض التّاريخ وإخضاعه للتّشكيل الرّوائي لدواع ومرام فنيّة وجمالية فقط، وإنّما لغايات ودلالات عدّة،كون الرّواية بما فيها المستندة على التّاريخ، لا تروم تحقيق البعد الجمالي والمتعة القرائية فقط، بل كانت وستظلّ . على تنوّع مستويات خطابها . تضطلع بتأدية مهام نبيلة، أعظمها توعية القارئ . ومن ورائه الإنسان . بأهمية معرفة الماضي لقراءة الواقع، والتّطلّع نحو غد أفضل، تتنوّع هذه المهام بتعدّد مقاصد مُنشئها، نذكر منها:

3-1- غايات تعليمية وتصحيح التّاريخ:

أ)- **الغايات التّعليميّة:** لعبت النّصوص السّردية على تنوّعها؛ أقصوصة أو قصّة أو سيرة ذاتية أو غيرية... دورا تعليميا رائدا منذ بدايات القرن العشرين، خاصة الرّواية التّاريخية التي أخذت على عاتقها تفعيل الحركة الثّقافية وجذب المتعلّمين على تباين مستوياتهم، فكان لها بالغ الأثر على توسيع المعارف وتحسين أساليب كتابات المؤلّفين. فخطابها المهجّن بالتّاريخ ليس "نوعا من التّرف الفنّي أو المتعة الجمالية الخالصة، بل كان ومازال فنّا يؤدي دورا نشطا في تحريك الأذهان، وشحنها بالقيّم والأفكار تجاه الماضي، والواقع معا، والتّطلّع نحو الغد انطلاقا من هذه الأفكار وتلك القيّم"[28]، فهي كتابات تستأنس باللّمسات الفنّية لأجل تبليغ وتعليم التّاريخ، والتّعريف بشخصيات تاريخيّة فذّة بغية الاقتداء بها، وهو ما نجده بجلاء واضحا في الكتب المدرسية على اختلاف أطوارها في نصوص سرديّة، تتلاءم وطبيعة المتعلّمين ومستوياتهم التّعليمية.

نميّز في هذا البعد التّعليمي– وفق ما ذهب إليه النّاقد حلمي محمد القعود– ثلاث اتجاهات في المنجز الروائي العربي، الاتجاه الأوّل رواية المعلومات التّاريخية، يتزعمّه جورجي زيدان، الذي يرى أنّ الفنّ يجب أن يكون خادما للحقيقة، مُخالفا بذاك ما ذهب إليه الرّوائيون الغربيون في سرودهم المدّثرة بوشاح التّاريخ، وهو ما يجسّده قوله:" إنّنا نتوخى جهدنا في أن يكون التّاريخ حاكما على الرّواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج، ومنهم من جعل غرضه الأوّل تأليف روايتنا على التّاريخ، وإنّما جاء بالحقائق التّاريخية لإلباس الرّواية ثوب الحقيقة...فالعمدة في روايتنا على التّاريخ، وإنّما نأتي بحوادث الرّواية تشويقا للمطالعين"[29]، لتكون اللّمسات الجمالية في الخطاب الرّوائي جسرا ووسيلة لا غاية لتعليم التّاريخ ونشره، ولاستقطاب المتلقي وجعله يتلقى متونه بِنهم في حُلّة سردية شائقة وممتعة.

أمّا الاتجاه الثّاني، فيتضمّن روايات" تعليم الصّياغة والأسلوب"، نصوصها تُسجّل حضورها بنسب تشدّ الانتباه في الكتب المدرسيّة الخاصة باللّغة العربية، لما تكتنزه من صيغ تعبيريّة ونماذج أسلوبية تساهم في تطوير أسلوب كتابات المتعلّمين وإثراء أرصدتهم اللّغوية من كلمات راقية، توظّف في التّعبير عن أفكارهم وكوامن ذواتهم بطريقة سلسة، وهذا بغية بلوغ كفايات لغوية في جميع مستوياتها؛ المعجمي، التركيبي، الدّلالي.

ففي هذا السّياق نذكر- للتّمثيل لا الحصر- رواية "هاتف من الأندلس" و" بني حمدان" للرّوائية (غادة رشيد)، إضافة إلى ما يسمى"رواية التّرجمة الأدبية"، وهي سرد يرصد شخصيّة ما بجميع أبعادها، أين يُسهب الرّوائي في تحليها على الأصعدة النّفسية والاجتماعية والثقافية والسّياسية وما أنجزته بغية الاقتداء بها.

ب)- إعادة الاعتبار للحقيقة التّاريخيّة: الرّواية التّاريخية على الرّغم من أنّها لا تُفصح عن الحقيقة التّاريخية حرفيا كما هو مدوّن في أمّهات كتب التّاريخ والمواثيق، إلا أنّها في أحايين كثيرة تتجاوز إملاءات التّاريخ الرّسمي المزوّر الذي غيّب معاناة المهمّشين وانتصر لسطوة السّلطة، ونصفت الإنسان المُهمَّش، منفتحة بذلك على "ما هو مسكوت عنه، من أنساق مغيّبة ومدفونة تحت ركام ثقيل من أكاذيب وتضليلات المدوّنات الرّسمية الصّفراء"[30]، ليكون الرّوائيّ بذلك مُصحّحا لسقطات التّاريخ، فاضحا لتزويره من خلال إعادة بعث تاريخ صاف من الشّوائب، يكون أكثر صدقا ممّا ورد في مدوّنات التّاريخ الرّسمي.

فالعديد من كتابات التّاريخ أثبتت أنّ "كثيرا ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين ولأئمة النّقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النّقل غثّا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها، بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النّظر والبصيرة بالأخبار"[31]، فمن الشّواهد على أنّ المؤرّخ قد يجانب الحقيقة سهوا أو عمدا، ولا يمكن الوثوق به، نورد ما ذهب إليه ابن خلدون في حديثه عن الرّشيد، محاولا تلميع صورته والنّأي به عمّا أُتّهم به من مجون ومعاقرة الخمرة، بقوله: "وإنّما كان الرّشيد يشرب نبيذ التّمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيها معروفة، وأمّا الخمر الصّرف فلا سبيل إلى اتّهامه به ولا تقليد الأخبار الواهية فيها"[32]. من خلال هذا القول يتّضح أنّ عددا لا يُستهان به من مدوّني التّاريخ- على اختلاف مشاربهم ومرجعياتهم- تدوينهم للتّاريخ وتفسيرهم له غير بريء.

لذا لم يعد المتلقي، والباحث والنّاقد -على حدّ سواء- يبحثون عن الحقيقة بين من دفّات التّاريخ فحسب، وإنمّا -أيضا- بين ما جادت به مخيّلة الرّوائي، ليصبح بذلك هذا الأخير منافسا للمؤرّخ في قول الحقيقة، وربّما تكون أكثر صدقا منه من خلال تسريد التّاريخ روائيا، ورفض الصّور الزّائفة التي يدوّنها التّاريخ الرّسمي الغير منزّه من الأخطاء والانحرافات تحت إكراهات السّلطة والانتصار للذّات.

2-3- الرّواية التّاريخية شهادة وعبرة لاستشراف المستقبل: إنّ عملية تسريد التّاريخ لا تقف عند حدود الغاية التّعليميّة والاقتصار على سرد الماضي وتوثيقه فقط، بل تحاول إضاءة الزّوايا المظلمة منه وإعادة تشكيل أحداثه من خلال ترهينه، تُستثمر فيه المادة الحكائية التّاريخية المستلة من الماضي لتفسير الحاضر عبر اتخاذ الحقيقة التّاريخيّة سندا لتفسيره وملء الفراغات التي تجاهلها أو جهلها المؤرّخ، أو عجز عن تفسيرها والنّبش المسكوت عنه، فـ"الرّواية لا تكون تاريخيّة إلّا إذا حملت من زمن كتابتها مشاغله الأساسية وقضاياه الرّاهنة"[33]، وهو ما أكّده جورج لوكاتش بالقول أنّ "ما يهمّ في الرّواية التّاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التّاريخية الكبيرة، بل لإيقاظ البعد الشّعوري للنّاس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهمّ أن نعيش مرّة أخرى الدّوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدّت بهم أن يفكّروا ويشعروا ويتصرّفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التّاريخي"[34]، فيكون حضور التّاريخ في هذا السّياق ليس من باب الاجترار، وإنّما لمعرفة الأسباب الكامنة وراء تصرفاتهم آنذاك، ومن ثمّة الاستفادة من تجاربهم.

من هنا جاء السّرد الرّوائي المدّثر بثوب التّاريخ لتوثيق سيّر الأوّلين وتجارب السّابقين التي تراوحت أيامهم بين الانكسارات والانتصارات، توثيق تُعاد قراءةُ متونه لاستخلاص العبر، فقد جاء في محكم التّنزيل، قوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ"[35]، ليكون- بذلك- فعل القصّ إجمالا والتّاريخي خاصة، تدوينا

تعيد الرّواية من خلاله تشريح التّجربة الإنسانية لاستخلاص العبر؛ بتفكيك البنى الاجتماعية والسّياسية والثّقافية والعقدية لمجتمعات تلك الحقب التّاريخية وإعادة تركيبها لأجل كتابة تاريخ جديد مضاد،يتشكّل على أنقاض التّاريخ السّابق المطعون في صدقه، فلا يكون صدى لصوته، وإنّما شاهدا يعيد للحقيقة صفاءها.

فمن بين الشّواهد الرّوائية التي زاوجت بين تاريخ أَفِل وتاريخ متخيّل،لأجل الشّهادة وأخذ العبرة، نجد رواية "سيد قريش" للرّوائي "معروف الأرناؤوط"، التي أرّخت في بعض محطّاتها لسذاجة العرب، من خلال سرد معارك قبيلة الغساسنة وتحالفها مع الإمبراطورية البيزنطية ضد قبيلة المناذرة المتحالفة هي الأخرى مع الإمبراطورية الفارسية، وهو ما يتجلّى بوضوح في المقطع السّردي الآتي، المُروى على لسان ملك الغساسنة المنذر بن الحارث بن جبلة، يقول:"... ولكن أحببت أن أحسّ على قومي فلا تراق دماؤهم. فدعوت النّعمان على وضع السّلاح، ورجوته أن تكون بيننا مودعة طويلة نستريح إليها، ولكنّ النّعمان تمادى في استهتاره وعبثه بكرامتنا، فراح يحشدوا الجيوش على لأطراف بلادنا، بالعار...فإذا أريق دم بريء في هذه الصّحراء، فإنّ إثم ذلك يقع على من في العراق من أبناء عمّنا، الذّين جعلوا أنفسهم خولا للفرس وعبدانا لرؤسائهم"[36] ، سرد أراد من خلاله "أرناؤوط" أن يبيّن أنّ حالة تشرذم الأمّة وتناحرها وإذعانها للغرب في الوقت الرّاهن ما هو إلاّ استمرارية لتّاريخ العرب، وأنّهم لا يعتبرون ولا يستفيدون من دروس الماضي لبناء مستقبلهم.

4- خاتمة:

من خلال ما تمّ عرضه يتّضح جليّا أنّ التّاريخ أضحى من أهمّ المرجعيات التي تنحاز لها الرّواية في تشكيل خطاباتها، من خلال إقامة شراكة فنيّة بينه، في ضوئها يسعى الرّوائي إلى تسريد وأَخْيَلَة المادة الحكائية التّاريخية ذات المرجعية الواقعية، بترهين أحداثها، عبر عدّة آليات، أهمها: استثمار الوثيقة والنّص التّاريخيين وتفعيل الذّاكرة التّاريخيّة وتجميد حركة الزّمن التّاريخي لإعادة بعثه من جديد، إضافة إلى تقانات أخرى ما فتئ عالم السّرد يفصح عنها.

الهوامش:

[1] - عبد المالك مرتاض، في نظرية الرّواية، ع240،(عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، 1998م، الكويت)، ص27.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص11.

[3] - ينظر، شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التّأويل، ط1،(الدّار البيضاء، دار الثّقافة، 2005م، المغرب)، ص172.

[4] - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[5] - ينظر، فاضل ثامر، التّأريخي والسّردي في الرّواية العربية، ط1،(ابن النّديم للنّشر والتّوزيع، 2018م، الجزائر)، ص29.

[6] - ينظر، فاضل ثامر، المبنى الميتا- سردي في الرّواية،(بيروت، دار المدى، 2013م، لبنان)، ص34.

[7] - ينظر، إبراهيم عبداللّه، التّخيّل التّاريخي، موسوعة السّرد العربي،(بيروت، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، 2005م، لبنان)، ص6.

[8] - محمد القاضي، توظيف المادة التّاريخية في الرّواية،(قطر، ندوة "الرّواية والتّاريخ"، 2005م)، ص122.

[9] - إبراهيم عبدا لله، التّخيّل التّاريخي، موسوعة السّرد العربي، ص5.

[10] - عبد المالك مرتاض، في نظرية الرّواية، ص 24.

[11] - المرجع نفسه، ص 27.

[12] - حسن العمراني، التّاريخ والحقيقة،(الرّباط، مجلة يتفكّرون، مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود"، ع:الثالث، 17/ 12/ 2014م، المغرب)، ص3.

[13]-ينظر، عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التّاريخ، ط2،(الدّار البيضاء، بيروت، المركز الثّقافي العربي، 1988م، المغرب، لبنان)، ، ص09.

[14] - المرجع نفسه، ص09.

[15] - المرجع نفسه، ص27.

[16] - فيصل درّاج، نظرية الرّواية والرّواية العربية، ط1،(بيروت، المركز الثّقافي العربي)، ص82.

[17] - ينظر، فاضل ثامر، التّأريخي والسّردي في الرّواية العربية، ص13.

[18] - ينظر، مجموعة من المؤلّفين، (بيروت، معجم السّرديات إشراف محمد القاضي، الرّابطة الدّوليّة للنّاشرين المستقلّين، 2010م)، ص211.

[19] - ينظر، سعيد يقطين، قضايا الرّواية العربية الجديدة الوجود والحدود،(القاهرة، دار رؤية للنّشر والتّوزيع، 2010م، مصر)، ص209.

[20] - ينظر، نادر كاظم، الرّواية وإعادة تحبيك التّاريخ، مجلة الرّقيم، العدد5،(كربلاء، دار الرّقيم للنّشر، 2014م، العراق)، ص64.

[21] - ينظر، فاضل ثامر، التّأريخي والسّردي في الرّواية العربية، ص10.

[22] -ينظر،المويفن مصطفى، تشكّل المكوّنات الرّوائية، ط1،(اللّاذقية، دار الحوار،2001م، سوريا)، ص49.

[23] - فيصل دراج، نظرية الرّواية والرّواية العربيّة، ص83.

[24] . وسيني الأعرج، رماد الشّرق، الجزء الأول"خريف نيويورك الأخير"، ط1،(بيروت، بغداد، منشورات الجمل، 2013م)، ص351

[25] - الطّاهر وطّار، قصيد في التّذلّل،(الجزائر، منشورات الفضاء الحرّ، 2010م)، ص30.

[26] - عبد الرحمن مجيد الرّبيعي، الخروج من بيت الطّاعة،ط2،(بيروت، الدّار العربية للموسوعات، لبنان، 2010م)، ص 430.

[27] -ينظر، أيون أيدل، فنّ السّيرة الذّاتية، تر: صدقي خطاب،(القاهرة، مؤسّسة الحلبي، 2009م، مصر)، ص173.

[28] - حلمي محمد القعود، الرّواية التّاريخية في أدبنا الحديث- دراسات تطبيقيّة- ط2،(مصر، دار العلم والإيمان للنّشر والتّوزيع، 2010م)، ص15.

[29] - المرجع نفسه، ص17.

[30] - فاضل ثامر، التّأريخي والسّردي في الرّواية العربية، ص11.

[31] - عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة تاريخ العلامة ابن خلدون،(تونس، الدّار التّونسية للنّشر، 1984م، تونس)، ص13.

[32] - عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، ص47.

[33] - مجموعة من المؤلّفين، معجم السّرديات، ص211.

[34] - جورج لوكاتش، الرّواية التّاريخيّة، تر: جواد صالح كاظم،(بيروت، دار الطّليعة، 1978م)، ص46.

[35] - سورة يوسف، الآية 111.

[36] - معروف الأرناؤوط، سيد قريش، (الجزائر، موفم للنّشر، 1993م)، ص210.